الأب أنستاس ماري الكرملي

لقد عمر الأسى تلك القلوب التي تحنو على اللغة العربية بانطفاء مصباح ذلك الروح الذي ظلّ يرمض عليها من ضيائه ما ينير زواياها ، ويكشف عن معالمها ، وأهمل في الجوانح ذلك اللهيب من الحزن لانطواء هذه الحياة التي جادت بمذخور قواها وأنفقت صحة زهرة حياتها في القيام على خدمتها ، والذود عنها ، والعمل على حفظها ، ودراسة كثير من أصولها وبحث مشتقاتها ، حتى غدت مرجعاً موثوقاً بإطلاعه ، وإلمامه في أصول اللغة ، ومشتقاتها ، وبيان تلك الوشائج التي تربط بعض الكلمات العربية بنظائرها في اللغات القديمة ، وبحث كثير من دقائقها ، ونشر ما استتر من جواهرها ، ثم أخذ يمدها بأقوى الأسباب فوق ما يخرجه من كتب بتلك الأبحاث المتنوعة ، الناضجة ، التي كانت تتجاوب بها المجلات الأدبية في أنحاء العالم العربي حاملة اليه ثمرات جهد متواصل ، وعبقرية فذة ، ثم أخذ يصدر مجلته كأنما ضاقت مجهوده وناءت بمحصوله الصحافة والكتب ، فأراد أن يخفف من عبئهما بهذه المجلة .

* * *

والواقع أن هذا الرجل قد قدم للعربية من المنّ ما تعجز عنه الجامعات ، فقد احتلّ حبه لهذه اللغة ، وشغفه بها ، كل مشاعر نفسه ، وعواطف قلبه ، فهي مجال نشاطه ، ومجوى ضميره ، وموضع عنايته .

وحسب هذه اللغة أن تظفر بهذه الجهود التي تتجلى مظاهرها في هذا الولع في البحث ، والتنقيب ، كما تتجلى في الدأب ، والكد ، وراء المخطوطات النادرة ، فإذا ما أسعده الحظ ببعض هذه التحف ، إنثنى بها وهو لا يكاد يقف سروره عند حدّ ، فيسعى به حفيًّا ، ليطالعه في شوق ، ويستوعبه في لذة ، وقد كان له عناية خاصّة بوضع

الفهارس المنظمة المكتوبة ، وبراعة فيها ؛ وعلمه إحدى مستندات ... التقدمة باليمن ، ولعله كان الوحيد ربما أعلى في العالم العربي في تمرده ... في هذه الناحية ؛ وقد سمعت منه أنه وضع معجماً كبيراً ، ولا يزال عنده مخطوطاً ، ليت ... المجمع اللغوي بالاستيلاء على هذه البحوث ، ونشرها تعميماً للفائدة بها ... وتلك الأعوام التي بذلت في سبيلها ، وتنظيمها من الضياع ، والمجمع ... أولى وأحق من الجمع وكان — الآب — أحد أركانه الأقوياء ، ودعائمه المتينة ، ولست أريد بهذه الكلمة دراسة هذا النابغة ، وتحليل آثاره القيمة ، فلكل هذا وقته ، وأنداده ، وإنما أريد أن أهدف من وراء هذه الحياة إلى عبرة نستخلصها منها ؛ وهي الإخلاص لما يتخذه المرء من شؤون علمية كانت ، أو أدبية ، أو لغوية أو غيرها والتخصص في الناحية التي تبرز مزاياه فيها .

وقد توافرت هاتان الخلتان في — الآب أنستاس — فقد أرادت بيئته أن تتخذ منه قسيساً مبشراً ، فلم يستجب لهذا إلا بمقدار حتى لا يتجنى على مواهبه ، ولا يتحيف عبقريته. ثم عرف موطن قوته ، ومبعث خلوده ، فأخذ نفسه بكل ما يقويه ، وينشطه ، ويمده بالحياة. وحسبه هذا الترهب في محرابه العلمي ، وانقطاعه في ديره للبحث ، ولتأدية ما يمكن أن يؤديه الإنسان المخلص من ضروب التعبد العلمي ، وإخلاصه هذا الإخلاص الذي لم يدع فرصة يمكن الاستفادة منها ، واستغلالها لمواهبه وتركها ، فلم يلهو عن مواهبه حتى يلحقها الصدأ ، ويجني عليها الإهمال ، أو يحبس رسالته تحت مشيئة الظروف إن أتاحت لها العمل عملت وإلا جارت عليها الحوادث ، بل قد فرغ من كل شيء ، واتخذها شغله ، وراحته ، ويقظته ، ونومه ، وهذا الإخلاص يعز كثيراً في هذه الأوقات ، وكأنما المقادير شاءت بهذه اللغة ألا تحرم من أمثال تلك الجهود ، فوكلت بها هؤلاء الرهبان ، ما رأيت الآب أنستاس مرة إلا طافت بذهني هذه الخواطر ، وبرزت لعيني هذه الحقيقة التي لا بد منها لكل جهد علمي مثمر ، جزاه الله عن خدمته للغة — القرآن — خير ما يجزى العاملون المخلصون على عملهم وإخلاصهم .

محمد عبد الحليم أبو زيد